العقيدة في النصوص الثقافية

بحث تحليلي حول انعكاس العقيدة في النصوص الثقافية

Doctrine in Cultural Texts

An Analytical Study of Belief Reflected in Cultural Discourses

دكتور شاكر كتاب

Dr Shakir Kitab

جامعة أوروك

Uruk University

المستخلص:

أنجبت الثقافة العربية – إبّان مرحلة الصيرورة المحلية ثم العالمية بعد ذلك– ثلاثة عوالم كبرى شكلت معاً هويةً متميزةً لكل العرب ولتاريخهم ولوجودهم وهي: اللغة – الدين – الشعر. وبالرغم من شتى مراحل التطور التي خلقت ما اصطلح عليه بـــ "الحضارة العربية الإسلامية" فإن تلازم الثلاثي ظل مستمرا بل، كما تؤكد الشواهد، وتماسك أكثر وتطور ثم اتخذ هياكل جديدة. وتأثيرات هذا التلازم دخلت العلوم الأكاديمية والفعاليات الثقافية والاجتماعية دونما فكاك من بعضها. وبحثنا هذا مهمته متابعة أسباب هذا التكامل فيما بين اللغة والشعر والدين والكشف عنها وعن تداعيات تظافرها في قلب الثقافة العربية وتأثيراته. ولكن ينبغي أولا التعرف على محطات تاريخ هذه العلاقة وكيف ترسخت. والحقيقة إن مصطلح " الحضارة العربية الإسلامية" نفسه ينطوي على لقاء حاسم بين مكونين اثنين من العقل العربي الفاعل لكنهما التقيا ليضما تحت جنحيهما كافة العناصر التي انجبتها الثقافة العربية ومن أبرزها الشعر. لذلك استهوتني هذه العلاقة بين أطراف هذا الثلاثي.

كلمات مفتاحية: (العقيدة، اللغة، توحيد اللغة، الدين، الشعر، الثقافة،)

Abstract:

The Arabic culture—during its formative local phase and later its global expansion—gave rise to three major realms that collectively shaped a distinct identity for all Arabs, their history, and their very existence: language, religion, and poetry. Despite the various stages of development that produced what came to be known as the "Arab-Islamic civilization," this triad remained inseparable. In fact, as evidence shows, it became even more cohesive, more developed, and eventually assumed new structures.

The influence of this interconnection permeated academic disciplines as well as cultural and social activities, becoming inseparable in many contexts. The purpose of this study is to examine the reasons behind this integration among language, poetry, and religion, to uncover its nature, and to explore the outcomes of their synergy at the heart of Arab culture and its broader impact.

However, it is first necessary to identify the historical milestones of this relationship and how it became firmly established. The truth is that the very term "Arab-Islamic civilization" implies a decisive convergence between two active components of the Arab intellect, which came together to encompass all the elements generated by Arab culture—most notably poetry. For this reason, the relationship among the elements of this triad has always captivated my interest.

١ – المقدمة:

كانت اللغة العربية قد مرت بمراحل عديدة إلى حين وصولها إلى مرحلة التكامل وما زالت تواصل تطورها بسبب انفتاحها على اللغات والثقافات الأخرى. لكن من بين أهم مراحل استكمال كيانها ووحدتها كان هناك عاملان أساسيان: الدين الإسلامي ممثلا قبل كل شيء بالقرآن الكريم وكذلك ان الشعر العربي قبل الإسلام وبعده. وما زالت هذه العناصر الثلاثة تتداخل ويؤثر بعضه ببعض ويتسبب في تكامله. لكن في الحقيقة تحقق لدينا ثلاثي شكل إحدى جواهر الحضارة العربية الإسلامية: اللغة – الدين – الأدب.

١ – ١: منهج البحث:

عمدت في بحثي هذا إلى المنهج الوصفي التحليلي وذلك برصد العلاقة بين اللغة العربية والدين الإسلامي أولاً وتأثير كل منهما على الآخر وصولا إلى توحيد لغة القبائل والمدن العربية بعامل القرآن الكريم ثم انعكاس ذلك على الشعر العربي وكذلك تأثير الشعر على الرسالة الإسلامية وعلى تفسير القرآن. من هذه الأطراف تولد لدينا ثلاثي ثقافي كبير ومؤثر على مجمل الثقافة العربية حتى يومنا هذا.

١-٢: خلفية البحث:

سبقت بحثي هذا معالجات علمية رصينة لكنها كانت ثنائية التناول فإما أنها تتناول العلاقة بين اللغة والدين الإسلامي ولاسيما القرآن الكريم أو الدين عامةً والشعر أو اللغة والشعر. لكنني وجدت تداخلا تكامليا بين الظواهر الكبيرة الثلاث تسبب في تأثيرات متبادلة جعلت منها كلها عالما قائما بذاته فرأيت أن أفرد له بحثا خاصا قد يكون مشروعا واعدا لدراسة تفصيلية لاحقة قد تأخذ شكل كتاب منفرد.

١-٣: وتأتي أهمية البحث في أنه يكشف عن أهم هوية من هويات الثقافة العربية وهو ثلاثي اللغة والدين والشعر ويكشف عن التداخل التام بين هذه الأطراف الثلاثة فيجعلها موحدة كظاهرة واحدة، مما يفتح الطريق نحو بحوث أخرى تسلط الضوء على جوانب جديدة من شأنها إغناء الموضوع.

٢. الجانب النظري:

٢-١: اللغة وتكاملها:

العربية هي احدى أكبر اللغات السامية وكانت لغة القبائل المنتشرة في أنحاء شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام واليمن وحضرموت ومناطق من العراق الحالي[١]. وكانت هي لغة، ليس التبادل التجاري وحسب، إنما العبادات والطقوس الدينية المتنوعة لاسيما الديانات الوثنية والحنيفية وكذلك القبائل العربية التي اعتنقت المسيحية واليهودية وكذلك – وهذا هو المهم – أنها كانت لغة الشعر العربي القديم الذي سبق الإسلام.

١ انظر في ذلك: الدكتور ناصر الدين الأسد، " مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية"، دار المعارف القاهرة، الطبعة الخامسة، التمهيد: مجتمعات العرب في الجاهلية وتفاوتها في الحضارة، ص ١- ٩. وكذلك أنظر: عمر فروخ، الأدب القديم – من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، ب. ت.، ص ٣١ -٣٣ وكذلك ص ٥٩ – ٦٠.

والحقيقة، لم يحسم بعد أيهما كان سبباً في توحيد لغة العرب، الشعر قبل الإسلام أم القرآن الكريم. ولكل طرف رأيه وحججه التي تبدو منطقية لكنني أرى أن كلّاً من الشعر قبل الإسلام والقرآن الكريم أدّى دوراً هامّاً في توحيد لغة العرب.

عندما نقول أن للشعر قبل الإسلام دورا فإنما نشير هنا إلى عاملين أساسيين اجتمعا في مكان واحد هما: لقاءات تجار العرب من مختلف القبائل في مكة فيضطرهم الاختلاط الى استعمال لغة موحدة وكذلك وجود آلهتهم وتماثيلها وأصنامهم ورموزهم الدينية في الكعبة مما يزيد المساحات الزمنية للالتقاء والتفاهم وتعزيز العلاقات الثقافية ولاسيما اللغة. ويذكر التاريخ أن القبائل العربية رغم بعد مراكز سكناها عن مكة لكنها كانت تزور الكعبة في مواسم الحج وهي تتغنى في طريقها الطويل إلى الكعبة بالأناشيد الدينية التي حفظت لنا الذاكرة الشفاهية ومن بعدها الكتابة والمدونات عددا غير قليل منها[١]. ووجود المعلقات الشعرية الشهيرة معلقة على جدران الكعبة لشعراء ينتمي كل منهم لقبيلة معينة يعطينا الدلالة على وحدة لغة العرب قبل الإسلام. ولعل عوامل أخرى تضاف إلى هذين العاملين قبل الإسلام من مثل العلاقات الاجتماعية والأعياد والمناسبات والزيجات المختلطة وكذلك الحروب وما رافقها من نقائض شعرية تمثل بالهجاء المتبادل والتفاخر بالفرسان والانتصار على الخصوم ليكون الفخر هنا حاضرا ومعلوم أن القبائل العربية كانت تحتفل بظهور شاعر من أبنائها وتقام الأفراح والرقص والغناء اعتزازا بهذه المناسبة وتفاخرا[٢].

لكن دور القرآن الكريم كان أكثر حسما في توحيد اللغة العربية للأسباب التالية:

١- ان القرآن الكريم ألغى العبادات الوثنية كلها وحرَّمها ووحَّد العرب تحت راية دين واحد وكتاب مقدس واحد وبلغة عربية واحدة وطقوس وعبادات بهذه اللغة الموحدة.

٢- أن الإسلام وحّد العرب وكل قبائلهم سياسياً بقيام الدولة الإسلامية الواحدة بدءا من سلطة النبي محمد "ص" في المدينة التي صارت عاصمة النظام الجديد ومركز حكومته.

٣- فرض الإسلام، بعد أن هيمن سياسياً، ثقافة واحدة موحّدة للعرب كلهم، وحتى بعد أن اتسعت ساحات حكمه، انتشرت هذه الثقافة هناك في البلدان الجديدة التي تعلّم أهلها العربية تأثراً بالقرآن الكريم ورغبة في الوقوف على نصوصه وتعاليمه.

---

١ شوقي ضيف، الأدب الجاهلي، وأنظر جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي. وكذلك: د. ناصر الدين ألأسد، مصدر سابق، ص٣٣.

٢ ابن رشيق العمدة، الطبعة الثاني، القاهرة ١٩٤٣، المجلد الأول ص ٥٦.

٢-٢: الدين ومراحل صراعه:

في عشية إعلان النبي محمد "ص" دعوته للدين الجديد كانت العرب موزعة بين أديان عديدة منها الأحناف والمسيحية واليهودية والوثنية والدهرية وعبادات أخرى أصغر حجما وأقل تأثيراً. وكانت الديانتان السماويتان المسيحية واليهودية تملكان مراجع توجيه وتعليم وعبادات وكتبا مقدسة. لكن الرسول "ص" جوبه هو ودعوته والمؤمنين معه بمعارضة قوية من بعض زعماء قبيلته قريش قبل غيرهم فاضطر الى الهجرة إلى يثرب التي تحول اسمها الى المدينة وانتقل الصراع مع قريش إلى هناك حيث اتخذ شكلا مسلحا فوقعت معركة بدر الكبرى ومن هنا راح الإسلام يشغل مكاناً كبيراً متميزاً في المشهد السياسي والثقافي والديني في شبه الجزيرة العربية وقويَ ساعده أكثر في صراعاته مع القبائل اليهودية القاطنة يومذاك في المدينة وفي أطرافها. واستقر الإسلام ليؤسس نظاماً سياسياً إلى جانب بعده الديني تمثل في سلطة النبي "ص" ووثيقة المدينة بينه وبين اليهود، وغيرهم من السكان، وتأسست أولى السرايا العسكرية وتحول المسجد النبوي إلى مدرسة دينية وعلمية وصار مقراً للسلطة الجديدة التي ألغت كثيرا من عناصر النظام القبلي القديم وأحلت محلها علاقات وقيم جديدة. كما واتسعت منذ عهد الرسول "ص" ومن بعده في زمن الخلفاء الراشدين سلطة الإسلام لتشمل قبائل وبلدانا مجاورة عديدة.

٣- الشعر وتغطيته كل تاريخ الأمة:

يمتد تاريخ الشعر العربي منذ ما قبل الإسلام بفترات طويلة تناقلته الذاكرة الشفاهية للرواة وللناس العاديين لكن الكتابة كانت موجودة وبأشكال متنوعة[١] ومن بينها ما كان قد علق علّى جدران الكعبة اعتزازا بالنصوص عالية الجودة التي أبدعها شعراء القبائل المختلفة وتأثرا بممارسات الفلاسفة اليونان الذين كانوا يعلقون الحِكَم والأفكار التي يتوصلون إليها بعد مناقشاتهم وحواراتهم الطويلة على جدران دور العبادة تقديرا لها واعتزازا بها[٢].

مر الشعر العربي بمراحل عديدة حتى وصل إلينا بشكله الحالي المتنوع. فهناك مؤشرات إلى وجود الشعر العربي قبل الإسلام وقبل المعلقات بسنين طويلة، إذ يكفي الاستنتاج أنه ما كان للشعر أن يصل

---

١ د. ناصر الدين الأسد، نفسه الفصل الأول ص ٢٣ – ٢٥.

٢ حنين بن اسحق، آداب الفلاسفة، اختصره محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري، حققه وقدم له وعلق غليه : الدكتور عبد الرحمن بدوي، منشورات معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٥، ص٩٤. وانظر كذلك ص ٥١ من الكتاب نفسه.

إلى هذا المستوى الفني العالي ومن النضج الذي كانت عليه المعلقات لو لم يكن قد مرَّ بمراحل عديدة وطويلة صقلته وطورته حتى وصل إلى شكله هذا ووصل إلينا بمستواه الفني المتقدم[١]. من هنا يصعب علينا قبول تسمية تلك الفترة من تاريخ الشعر بالجاهلية، ففيما عدا الإنجازات الحضارية المتميزة التي تحققت في الحياة الاقتصادية من مزارع وسدود وقصور[١] وممالك ومدن كبيرة نجد في الحياة الاجتماعية تنظيما قبليا يقف على رأسه مجلس يسمى الملأ يقود القبيلة في الأمور الاستراتيجية والمصيرية وقراراته ملزمة للجميع ونجد مكانةً متميزة للمرأة وللقيم الإنسانية العديدة. وقد وثّق الشعر كل ذلك. وتشهد أشعار القوم على ذوقهم الفني العالي وإحساسهم بالجمال وفلسفته المستندة إلى التناسب والانسجام بين مكونات الظاهرة وانعكس كل هذا على بناء القصيدة وشكلها ومضمونها[٢]. وفي مجيء الإسلام تغيرت كثير من الاعتبارات الثقافية والسياسية فأوجد ظواهر شعرية وأدبية جديدة ما كانت موجودة قبل الإسلام من مثل الخطبة الدينية والأرجوزة الحربية وأدب الوصايا والرسائل وغيرها ويلمس المرء تغييرات حتى على مستوى اللغة والمفردات والتركيبات اللغوية[٣] وانتشر النثر ليشغل مساحات ينافس في مدياتها الشعر وتتغلب عليه في أحايين غير قليلة.

وفي العصر الأموي اتخذ الشعر والأدب العربي كله منحىً آخر إذ برزت فيه ظواهر واكبت التغيرات التي طرأت على الحياة الاجتماعية والصراعات السياسية لا سيما بين معسكرين كبيرين يقف على رأس أولهما الإمام علي وعلى الآخر الخليفة الأموي معاوية فصار لدينا شعر سياسي بامتياز وهجائي تجاوز كل ما حققه الهجاء من قبل، لاسيما على يد شعراء النقائض جرير والفرزدق والأخطل وبدأ الغزل يعود ليشغل مكانة كان قد فقدها إبان حكم الرسول "ص" والخلفاء الراشدين وتحول إلى الغزل الصريح حد الفحش على يد بعض شعر العصر العباسي حيث اتسعت الأغراض

---

١ ناصر الدين الأسد، نشأة الشعر الجاهلي (دراسة في المنهج)، الطبعة الأولى – الأردن ١٩٩٩، الفصل الثاني كله مخصص لهذه الموضوعة.

١ عن ذلك وانعكاسه في الشعر أنظر: أ. د. علي كمال الدين محمد الفهادي، الأثر الحضاري في الشعر الجاهلي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد ٢٠١٤، الفصل الأول ص ٣١-١١١.

٢ أنظر د. عبد الحسن حسن خلف، القيم المالية في الشعر الجاهلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بغداد، الطبعة الأولى ٢٠١٧ حيث يتتبع المؤلف المظاهر الجمالية التي غدت ظواهر قائمة في الثقافة العربية قبل الإسلام وكيف استطاع الشاعر العربي تدوينها في قصيدته بعد أن تشرب عقله ووعيه بها.

٣ راجع المفردات والتراكيب القرآنية التي دخلت الشعر العربي في عصر صدر الإسلام في: سامي مكي العاني، دراسات في الادب الإسلامي، دار المعارف، بغداد ١٩٦٨، ص ٢٥٩. وانظر كذلك: فوزي الطائي، أثر القرآن الكريم في الاشعر العراقي (من ١٩٠١-١٩٥٠)، بغداد ٢٠١٣.

لتشمل ما لم يكن في الحسبان وكل هذا جراء انفتاح المجتمع الإسلامي العربي على ثقافات دول أخرى كالفرس والترك والروم وغيرهم، فشهد الشعر اغراضا جديدة تماما مثل الشعر الصوفي والغزل الفاحش والمدح حد التأليه[١] والهجاء اللاذع والخمريات وغيرها. وعند سقوط الدولة العباسية على يد المغول تحول الشعر إلى أدنى مراحله فنياً ومضموناً حتى بدأت فترة النهضة التي شكل جوهرها مؤسسو مدارس التجديد الكبرى المتأثرة في الغالب بثقافة الغرب وشروطه الأدبية مثل الإحياء وأبوللو والمهجر والديوان[١] التي نقلت خبرتها وتأثرها بالغرب وطرائقه الفلسفية والفكرية والفنية، فانتشر شعر جديد يدعو إلى النهضة من السبات وإلى التغيير في كافة مناحي الحياة مما مهد لولادة الشعر العربي الجديد والذي سمي بالشعر الحر أو شعر التفعيلة.

٤- التداخل بين اللغة والدين:

ليس هناك من حدث في تاريخ اللغة العربية أعظم أهمية من ظهور الإسلام[٢]. والحقيقة أن القرآن الكريم هو النص الديني المقدس والذي كان العرب بحاجة إليه في مقابل التوراة والإنجيل لليهود والمسحيين فكان عربيا من حيث شكله ومضامينه. فلغته عربية نزل بها على رجل من أنفسهم (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلوا عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين – آل عمران الآية ٧١) أي عربي منهم وجاء بلسانهم الذي يفقهونه. ومن هنا تأكدت عربية الإسلام من حقيقة أن القرآن نصٌّ عربي وأن الرسول عربي واللغة عربية. وعدا عن هذا فإن النص القرآني جاء متضمناً لثقافة العرب وكذلك مؤثراً فيها نحو مقاصده الكبيرة. وبذلك نشأ تحالف قاد نحو الانصهار بين الطرفين، الإسلام والعربية، ككيانٍ واحد إلى الحد الذي جعلته يشكل كافة الاتجاهات المستقبلية في التاريخ الثقافي للحضارة العربية الإسلامية. وحتى أن التطور اللاحق لفكرة عالمية الإسلام ومصيره التقليدي لم تغير من الحقيقة الأساسية التي تتمثل في أن

---

١ الدكتور ناظم رشيد، الأدب العربي في العصر العباسي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٤، الموضوعات الشعرية، ص ٢٢-٢٧ وص٤١-٤٦.

١ الدكتور إبراهيم خليل، مدخل لدارسة الشعر العربي الحديث، الطبعة الخامسة، عمان ٢٠١٢، أنظر الفصول من الأول حتى الخامس.

٢ فينسنيتي كتنتارينو – علم الشعر في العصر الذهبي، ترجمة محمد مهدي شريف، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ٢٠٠٤، ص ١٠.

الإسلام ولد بالعربية، وفي عالم عربي، وكدين عربي[١]. لذلك نرى وكما أشرنا سابقا أن الإسلام، وتحديداً كتابه المقدس القرآن، صار عاملا حاسما في توحيد العرب ثقافيا واجتماعيا وسياسيا.

وبذلك يكون الإسلام حركة دينية واجتماعية عربية الأسس حتى وهو ينتشر بين البلدان والشعوب الأخرى، حيث اتبعت عملية التعريب على الأقل بالقدر الذي يسمح بمعرفة قراءة وفهم القرآن والعبادات الأخرى. ولقد تأكدت هوية الإسلام العربية في هذا التطابق بين اللغة والدين والذي في الحقيقة شكل الخلفية الثقافية لكل منهما مع مرور الأزمنة وأمدَّ اللغة بمقومات البقاء والتطور بل وأضفى عليها شيئا من القدسية على أنها هي الوسيلة التي استخدمها الله في التعبير عن إرادته[١].

وبينما تركّزت جهود المسلمين الأوائل على جمع القرآن أو آياته التي كانت محفوظة في صدور المسلمين حرص القائمون على هذا الجهد الكبير على تنقية لغة القرآن العربية مما علق بها من شوائب نتيجة اتساع أراضي الدين الجديد ودخول أقوام أخرى للإسلام ولو على هيئة أفراد في بادئ الأمر، أو مما اعتراه من اختلاف نتيجة الأخطاء التي وقعت في ذاكرة الأجيال لاسيما في وقت لم يكن فيه القرآن بعد قد تمَّ جمعه توحيده. وليس من مهام هذا البحث الوقوف عند من كان أول من أمر بجمع القرآن وخطا الخطوات الأولى نحو هذا الهدف لكن من المؤكد أن الجمع قد تم على يد عثمان بن عفان وفي اللغة العربية الموحدة التي استقرت على لهجة قريش لأسباب تتعلق في مركزية هذه القبيلة وموقعها الديني والتجاري والثقافي والأهم أنها قبيلة الرسول محمد "ص" الذي نزل عليه الوحي بهذه اللغة لا بغيرها وبغض النظر عما إذا كانت وراء الجمع باللهجة القريشية عوامل سياسية تمثلت بالرغبة بسيادتها السياسية وهيمنتها الثقافية منذ أن استضافت على جدران الكعبة أعلى النصوص الشعرية العربية قيمة فنياً وأدبياً.

ومنذ هذه اللحظة صار لغة القرآن لغةً معيارية تشكل مثالاً لا يحتذى وحسب إنما لا يسمح بمخالفة قوانينه ونماذجه. ومعلوم أن هناك تناسبا طرديا بين الهيمنة السياسية والثقافية بما في ذلك اللغوية. لكننا ينبغي أن نقف على حقيقة أخرى ليست بالعابرة وهي أن لهجة قريش وللعوامل الدينية والثقافية والاقتصادية المشار إليها كانت قد تطورت من جوانب عديدة ومن ذلك أنها احتوت اللهجات الأخرى وتحولت إلى الفصحى التي نزل بها القرآن وغدت لها من المركزية أو المرجعية الثقافية ما حدا بعثمان، كما ينسب إليه أن يقول حول عملية جمع القران ونصوصه المتناثرة في صدور المسلمين

---

١ نفسه ص ١١.

١ نفسه، ص ١١.

الأوائل وفي وسائل الكتابة التي استخدمها كتّاب الوحي لدى الرسول ص قبل وفاته: " فإن اختلفتم في شيء فاكتبوه في لهجة قريش فإنما نزل بلسانهم"[١]. ويأتي هذا تعبيرا عن قناعة "أن اللهجة المكية للغة العربية هي الشكل الذي اختاره الله لكي ينزل به الوحي على النبي"[٢] في حين الحقيقة هي أن اللهجة المكية هي التي ضمت كل اللهجات ووحدتها في طياتها نتيجة عوامل دينية وثقافية واقتصادية وأخيرا سياسية. وهاتان الحقيقتان (معيارية لغة القرآن وأنه كتب بلهجة قريش) ينبغي أن تعنيا أن القرآن كتب بلغة قريش، لغة مكة وأن اللغة التي توحدت وجمعت كل لهجات العرب إنما هي لغة أهل قريش، قبيلة النبي محمد "ص".

لكننا يجب أن نعترف أن الوحدة الشاملة للهجات العربية ضمن إطار لغوي واحد يشكل ظاهرة اللغة العربية الواحدة لم تتحقق بشكلها النهائي والحاسم إلا مرة واحدة وللأبد ألا وهي لغة الوحي الإلاهي العربية. صحيح أن وحدة اللغة العربية أو لنقل اندماج اللهجات كلها في لغة واحدة لم يأت استجابة لرغبة بل تحقق نتيجة عملية طويلة من التراكمات النوعية والمتعددة والتي توجت بالوحي الإلهي والذي هو أيضا ينبغي النظر إليه بموضوعية تاريخية كاستجابة لتطور روحي وثقافي وسياسي للعرب الذين مالوا بمرور الزمن إلى التمركز السياسي بعد أن تقاربت تجمعاتهم القبلية تدريجيا فكان من الطبيعي أن يأتي الوحي تتويجا لكل هذه المراحل والتطلعات رغم ما لاقاه النبي "ص" من عنت بعض أفخاذ وجهابذة قريش وبعض القبائل الأخرى.

من هنا فرضت العربية الموحدة نفسها على سائر المجتمع العربي الجديد الذي راح يتبلور تدريجيا والذي صار لزاما عليه تعلم أنقى اللهجات وهي الفصحى لغة القرآن لكن علقت باللغة الفصحى آثار لهجاتهم المختلفة لكنها القريبة من لغة القرآن مما وسّع من غنى العربية ومن هنا اتسعت الأشكال الصرفية الشائعة حتى يومنا هذا ولا أستبعد أن تجد ظاهرتا الترادف والجناس جذورهما في تنوع اللهجات العربية قبل الإسلام وقد حافظ عليها التناول اللاحق لعدم تقاطعها مع الهيكل العام للغة وتناولها اليومي.

وبقدر ما كان تقدير معتنقي الإسلام الأول للعربية في صورتها النقية عميقا ويستوي في هذا ذوو الأصول العربية وغير العربية فإننا لا نستطيع أن نتجاهل حقيقة أن تعلم العربية الصحيحة كان يعد

---

١ نفسه ص ١٢، الهامش من المترجم.

٢ نفسه ١٣

واجباً دينياً[١]. وينسب إلى عمر بن هبيرة حاكم العراق من سنة (٧١٩ – ٧٢٣م) أنه كان يرى أن الذي يستطيع أن يتكلم العربية بلا لحن سيكون مفضلا في الجنة على غيره الذي لا يقدر على ذلك[٢]. هذا وقد انشغل ابن ياقوت بن علي الرومي (ت ١٢٢٩م) بجمع عدة مواعظ ذات محتوى ديني تؤكد أهمية الدراسات اللغوية والأدبية والنحوية المنسوبة إلى الأجيال الأولى من المسلمين. فهو يقول أن أبا عمرو بن العلاء (ت ٧٧٠م) وهو لغوي ودارس للقرآن، أكد أن علم العربية هو الدين ذاته[١]. وهكذا راح يتأسس لدينا تراث لغوي (عربي) قرآني. يقول أبن خلدون:" أن علوم اللسان العربي أركانه أربعة، وهي اللغة والنحو والبيان والأدب، فمعرفتها ضرورية على أهل الشريعة، إذ مآخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من الصحابة والتابعين عرب، وشرح مشكلاتها من لغتهم، فلا بد معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة"[٢].

إشكالية أخرى ينبغي التوقف عندها هنا: وهي اعتقاد المسلمين في التفوق اللغوي والأدبي للقرآن الكريم علاوة عن التثبيت الصارم للنص القرآني الأصلي خلقا فكرة أن يكون النص القرآني هو من الله بلفظه وبلغته وكلماته وكل حرف من حروفه. ما يعني أن الوحي لم ينقل الى الرسول "ص" المضامين العقائدية والروحية وحدها بل تعداه إلى كل كلمة وكل حرف وإلى كل آية وكل صيغة لغوية في النص المقدس والكريم. وهنا لا بد من إثارة أسباب رفض بعض دارسي لغة القرآن الكريم لظاهرة الترادف واعتبروا أن شمولها للغة القرآن فعل محرم لأن الله سبحانه هو واضعه بقضه وقضيضه. ومن المفيد الإشارة هنا إلى مواقف بعض علماء اللغة العربية حول رفضهم ظاهرة الترادف لاسيما في القرآن الكريم فمثلا أبن فارس (ت ١٠٠٤م) يقول: " واعلم أن اختلاف الألفاظ على المعنى الواحد من سنن العرب، وليس عندنا من باب الترادف، لأن لكل لفظة معنى يخصها". فهو يرى أن ما يُظن أنه ترادف هو في الحقيقة تقارب في المعنى مع اختلاف الدلالة فأنكر الترادف المطلق. في كتابه[٣]. وكذلك الراغب الأصفهاني (ت ١١٠٩م) في كتابه يقول: "وقد يظن في بعض الألفاظ الترادف، وليس كذلك، لأن كل لفظة تدل على معنى يخصها" أي أنه ينفي الترادف في القرآن الكريم ويؤكد أن اختلاف

---

١ نفسه ١٤.

٢ ياقوت الحموي: معجم الأدباء، القاهرة ١٩٣٦، المجلد الأول ص ٨.

١ فينستي نفسه ص ٤١–١٥.

٢ فينسيتي ص١٥ لاحظ ملاحظة المترجم بشأن نسخة بيروت من كتاب ابن خلدون.

٣ الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها – تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩م، ص ١١٧.

الألفاظ نابع من دقة المعنى واختلاف الاستعمال القرآني[١]. مثلهما أبو هلال العسكري (ت نحو ١٠٠٤م) إذ يقول في كتابه "الفروق في اللغة": الفرق بين المترادفات من الألفاظ كالفرق بين المترادفات بين المعاني، وكل لفظين ظُنَّ أنهما بمعنى واحد ففي كل منهما معنى ليس في صاحبه"[٢] فهو إذن ينكر وجود الترادف التام وان كل الغرض من كتابه هذا لتفنيد ظاهرة الترادف ولتبيان الفروق الدقيقة. وكذلك الحال بالنسبة لأبن تيمية (توفي ١٣٢٨م) الذي يقول: " ليس في القرآن شيء من الألفاظ المترادفة التي معناها واحد من كل وجه، بل لابد من فرق بينهما" بمعنى أنه يرى إعجاز القرآن قائم على دقة الألفاظ، فلا يمكن أن يكون ترادف مطلق في القرآن الكريم [١] . إن تفرد كل لفظة بمعناها الذي لا يمكن أن تؤديه أية لفظة أخرى مهما كانت قريبة لها في معناها او مبناها.

ولدى المسلمين قناعة أن خلق الله يكون عادة متكاملا شكلاً ومضموناً. وما مضمونه جميل يكون شكله جميل أيضا ومن هذه القناعة الصائبة راح المسلمون يرسخون قناعة أن في القرآن جمالا أدبيا منقطع النظير بل ويفوق بسهولة أي جمال ادبي يخلقه الإنسان[٢]. وهذا الكلام هو الذي صار مدخلا لما اصطلح عليه بالإعجاز القرآني الذي كتبت عنه المؤلفات العديدة وكذلك رافقت هذه البحوث دراسات معمقة عن بلاغة القرآن الكريم ليس فقط للبحث العلمي إنما أيضا لدعم وتثبيت أركان نظرية الإعجاز. ومن بين أبرز من تخصصوا بالكتابة عن إعجاز القرآن الكريم هو أبو بكر الباقلاني (ت ١٠١٣م) وهو من رواد علم الكلام في عصره. رسالته تحت عنوان " إعجاز القرآن" يؤكد فيها على أن القرآن الكريم " بديع النظم، عجيب التأليف متناهي البلاغة الى الحد الذي يعجز الخلق عنه"[٣].

٥- اللغة والدين والشعر:

ويؤكد الباقلاني حين يجيب عن سؤال: هل يمكن إدراك الإعجاز القرآني عن طريق الظواهر البلاغية التي يحتويها؟ يجيب بالإيجاب ثم يربط بين وجودها في القرآن وفي الشعر أيضا تأكيدا **لوحدة الثلاثي اللغة والدين والشعر**. وقبل الباقلاني كان أبو هلال العسكري (ت ١٠٠٥ م) قد بين في كتابه واسع

---

١ المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٩م، مقدمة الكتاب، ص ٥.

٢ الفروق في اللغة، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٢، ص ٧.

١ مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، مجلد ٧، دار الوفاء ، ص ٨.

٢ حول جمالية النص والجملة والمفردة في القرآن الكريم أنظر: الدكتور أحمد ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، دار المكتبي، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٩٩،

٣ أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، وردت في ذيل كتاب "الاتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي القاهرة ١٩٥١.

الشهرة والذي يعتبر من مراجع النقد الأدبي والبلاغة في الثقافة العربية " الصناعتين" أن البلاغة والفصاحة من أشرف الأشياء التي يجب تعلمها بعد معرفة الله تعالى، إذ بهما فقط يعرف إعجاز القرآن. واصطف معه بعد أكثر من قرنين مؤيدا له حازم القرطاجني (ت ١٢٨٥م)، وهو من كبار نقاد الأدب واللغة في تاريخ العرب ولاسيما في القرن الثالث عشر، إذ يؤكد على رفعة البلاغة ألأدبية في النص القرآني ثم يأتي بعده بقرن من الزمان إبن القيم الجوزية (ت ١٣٣٠ م) الأسس المتنوعة التي استند عليها في أفكارهم وآرائهم بشأن قضية إعجاز القرآن اللغوي والبلاغي ليؤكد من جانبه أن من يتمكن من اللغة العربية ويقرأ لغتها ونحوها وأدبها بأنواعه من شعر ونثر وبلاغة سيتوصل حتما إلى سمو القرآن. في حين يذهب ابن خلدون إلى أشواط أبعد إذ يرى أن الفائدة الأعظم والأبعد للدراسات البلاغية والأدبية تتجلى في تقييم الإعجاز القرآني. فهو يؤكد أن اعلى مراتب الكمال مع الكلام فيما يختص بالألفاظ في انتقائها وجودة رصفها وتركيبها " وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه"[١]. وابن خلدون هو نفسه الذي يؤكد على أن: كلما ازداد عمق الشعور اللغوي لدى المرء وتعمقت ذائقته الأدبية كان أقرب إلى الادراك الفطري للتفوق الأدبي للقرآن[٢].

٥-١: البلاغة:

وفي " سر الفصاحة " يدافع أبن سنان الخفاجي (ت ١٠٧٣م) عن مفهوم التفوق القرآني على اتساع عالمه اللغوي وعمق معانيه. لكنه يشير إلى ظاهرة خطيرة موازية للترادف حين يقول لإثبات تفوق اللغة العربية " أننا نجد فيها الموضوع الواحد يمكن تسميته بعدة ألفاظ في وقت تفتقر اللغات الأخرى إلى هذه الإمكانية الأمر الذي يعود بالإشكال على موضوعة الترجمة الدقيقة من العربية إلى اللغات الأخرى. وقد ظهر ذلك حديثا في ترجمات القرآن الكريم والشعر العربي لاسيما القديم إلى اللغات الأوربية مثلا. ومما تقدم نلمس الشرط الجوهري المتولد من تزاوج مفهومين: أعلى درجات التفوق الأدبي للقرآن الكريم من جهة ومن ناحية أخرى أن الأدب وتطبيقاته البلاغية هو أفضل السبل للوقوف على التفوق اللغوي والأدبي والبلاغي الذي يتسم به القرآن. هذا التشارط أصبح قناعة ثقافية راسخة دفعت بأحد كبار أعلام النقد ألأدبي العرب وهو ابن قتيبة إلى الجزم بأن من يعرف فضل القرآن هو

---

١ فينسنتي، مصدر سابق، ص ١٨.

٢ Ibn Khaldun, The Muqaddimah, Vol.3 P338عن فينسنيتي ، نفسه ص ١٨.

هذا الذي كثر نظره واتسع علمه بفهم مذاهب العرب وافتتانها في الأساليب وما خص الله لغتها دون جميع اللغات من العارض والبيان واتساع المجال[١].

٥-٢: الشعر والدين

لقد كان الإسلام هو السبب الأساس والمباشر وراء الاهتمام المقدس باللغة لكنه كان أيضا سببا في الوعي بشروط الجمال والبلاغة إلى الحد الذي استخدمت آيات القرآن في النقد ألأدبي نظرا للتفاعل العميق بين المفاهيم الأدبية والدينية. والحقيقة لم يكن حضور القرآن في التطبيقات النقدية أمرا غريبا بل صار اتجاها ذكره عبد الله بن المعتز (ت ٩٠٨م)[١] في كتابه اللامع المتميز " البديع" ليصل إلى نتيجة أن البديع (وهو أحد فنون البلاغة) كعلم وفن من الممكن أن نجد نماذجه في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي وأقوال الصحابة بل حتى في أشعار القدماء أيضا[٢].

ويصل الاهتمام بالشعر وفي علاقته بالنص القرآني وتفسيره أو فهمه حدا أن تؤلف بحوث عن الشواهد الشعرية في تفسير القرآن الكريم. وغدا الشعر مادةً أساسيةً في تفسير القرآن الكريم في كتاب "مشكل تأويل القرآن" لأبن قتيبة المشار اليه أعلاه وكذلك في "الشعر والشعراء " الذي يشير فيه إلى المعايير الدينية في اختيار مادته واحتجاجه بأشعار الشعراء المفضلين لديه في شرح الغريب في النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسوله "ص"[٣]. وينسب إلى العباس بن عبد المطلب عمّ النبي ص قوله: " إذا قرأتم شيئا من كتاب الله فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب" ومعروف عن العباس أنه كان إذا سئل عن شيءٍ من القرآن أنشد شعراً[٤].

من هنا لنا أن نفهم أهمية الشعر في حياة العرب إذ كان أكبر علوم العربية كما يؤكد ابن رشيق في كتابه "العمدة"[٥]. وقول العباس بن عبد المطلب أن "الشعر ديوان العرب" الذي ينسب أيضا إلى ابنه عبد

---

١ افنيستي، نفسه، ص ٢٠.

١ عبد الله بن المعتز شاعر وناقد ومصنف. أنظر في سيرته وأدبه: شوقي ضيف، تاريخ ألأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمص، الطبعة الثانية، ١٩٧٥، ص ٣٢٤-٣٤٧.

٢ ابن المعتز، كتاب البديع، تحقيق كراتشوك، سلسلة جيب التذكارية، لندن ١٩٣٥، ص١. ألف ابن المعتز كتابه " الأسلوب الجديد" لمعالجة ما استحدثه الشعراء من ظواهر بلاغية ظنا منهم بأنها كذلك ولكنه كان يرى أنها كانت موجودة في القرآن والحديث.

٣ ابن قتيبة، كتاب الشعر والشعراء، القاهرة ١٩٦٦، ص٥٩.

٤ ابن رشيق، العمدة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٣، الملد ألأول، ص١٣.

٥ نفسه، ص ١٦.

الله لا يفسره بوضوح إلا ما قاله كبار نقاد الشعر وعلماء العرب ولنقف على بعضها لنرى موضع الشعر من الثقافة العربية والثقافة العربية من الشعر.

يقول أبن قتيبة (ت ٨٨٩م) في كتابه " عيون الأخبار"[١] أن الشعر:

١-معدن علم العرب: يقصد أساس علمهم وجوهره ومادته الأساس.

٢-وسفر حكمتها: سجل ثقافتهم وفلسفتهم ورؤاهم. الحكمة والفلسفة تساوقتا في الثقافة العربية.

٣-وديوان أخبارها: سجل تاريخ العرب والأحداث التي مروا بها.

٤-مستودع أيامها: الأيام الحروب والمعارك التي خاضوها، فالشعر كتاب سجلت فيه هذه الوقائع.

٥-والسور المضروب على مآثرها: المكان الذي يحيط بكل خصالهم وصفاتهم الحميدة.

٦-والشاهد العدل يوم الفخار: يستشهد به العرب يوم التفاخر في الأسواق وألأماكن العامة مع الآخرين.

٧-والحجة القاطعة عند الخصام: كان الشعر سلاح العرب في الحجاج مع الخصوم.

ثم يؤكد ابن قتيبة أثناء حديثه هذا عن مكنة الشعر عند العرب أن من لم يحفظ بيتا من الشعر يثبت دعواه وصحة مقاله عن أسلافه ومكارمهم أو خصاله هو ومناقب قومه فلا حجة له لأن ليس لديه ما يوثق قوله، فيقول:

٨- ومن يقم عنهم على شرفه وما يدعيه لسلفه من المناقب الكريمة والفعال الحميدة، بيتٌ منه (فلقد) شذَّت مساعيه وإن كانت مشهورة، ودرست على مرور الأيام (أي ضاعت واختفت تحت رمال الزمان) وإن كانت جساماً (أي مهما كبرت وعظمت). وعلى العكس من ذلك فإن:

٩-من قيّدها (المكارم والاحداث والمناقب) بقوافي الشعر، وأوثقها بأوزانه، وأشهرها (أعلنها) بالبيت النادر، والمثل السائر، والمعنى اللطيف، أخلدها الدهر (تصبح خالدة)، وأخلصها من الجحد (من النكران والتجاهل)، ودفع عنها كيد العدو (التآمر)، وغضَّ عين الحسود".

لم يتحدث هنا ابن قتيبة عن طبيعة الشعر وبنائه وأركانه إنما قدّم لنا قطعة تعريفية بعلاقة الشعر بالثقافة العربية والسلوك السائد لدى القبائل لكنه لم يذكر لنا أيضا أن هناك غرضين شعريين متميزين

١ إبن قتيبة، عيون الأخبار، القاهرة ١٩٦٥، المجلد الثاني، ص١٨٥.

كانا يحملان على عاتقيهما كل هذه الشروط والمواصفات التي ينبغي أن يتمتع بها الشعر العربي: المدح والفخر. فالثقافة العربية بكل مواصفاتها ومكوناتها احتواها الشعر فصار سجلا لها أو كما يقال ديوانا للعرب.

وفي الحقيقة لا ينطبق كلام ابن قتيبة على الشعر الجاهلي والإسلامي وحسب بل هو يتعلق بطبيعة ملازمة للشعر العربي، وصولا إلى أيامنا هذه، حيث نرى أن الشعر يكاد يكون مصدرا أساسيا للمعرفة الشاملة عن العرب وفي كل مرحلة من مراحل حياتهم. فإذا كان شعر ما قبل الإسلام قد غطى الطبيعة والعلاقات الاجتماعية والرؤيا الجمالية وحتى المنجز الحضاري الذي تحقق يومذاك فإن الشعر الإسلامي كان سجلا دقيقا لولادة الدين الجديد وتطور مراحل حياته السياسية والدينية والثقافية وكذلك نرى أن الشعر الأموي سجّل الصراعات السياسية التي اشتملت إبان قيام الدولة الأموية والحركات المعارضة بمختلف أنواعها والتطور الفني للقصيدة العربية لاسيما أدب النقائض وتكامل شروطه من كل جوانبه[١]، وعند وصولنا إلى الأدب العباسي نراه مرآةً لكل مجريات العصر من انفتاح حضاري متسع ودخول تيارات عديدة ومنها أصلا غريبة على الثقافة العربية التي تفاعلت معها واحتوتها فكانت هناك الصوفية والشعوبية والغزل بكل أنواعه ومدارس الزهد وغير ذلك. وإذا وقفنا عند شعر أبي تمام أو المتنبي وجدنا جزءا كبيرا من أشعارهما تسجيلا لأحداث تاريخية كبرى مرت بها الأمة العربية أبان حكم العباسيين أو بعد أن تجزأت إلى إمارات منفصلة عن بعضها وأحيانا متصارعة[٢]. لكن الشعر أيضا يسجل عادات المجتمع العربي وكذلك الحالة النفسية المشتركة لنصل في النهاية إلى القول بأن الشعر العربي ينطوي على العقل الجمعي للقوم، حيث دائما تكون النصوص الممتازة شعرا كانت أم غيره من الإبداع والتي يخلدها الزمن جامعةً بين الجمالية وشروطها الفنية من جهة وتجربة الشاعر الشعورية وكذلك الهاجس الجمعي الذي يقف وراءها سواء أكان ذلك بوعي الشاعر أم لا. من هنا يمكننا الجزم ان الشعر عدا عن كونه خزين لتجارب شعورية إنسانية عميقة هو أيضاً مصدر معرفي متنوّع. فيه ثقافة المجتمع وهاجسهم المشترك نحو الحياة والسلوك العام

---

١ النقائض من أشهر الظواهر الشعرية في تاريخ الأدب العربي وهي عبارة عن سجالات شعرية بين جرير والفرزدق والأخطل وكانت قد استكملت شروطها الفنية من وحدة الموضوع والوزن والقافية بعد أن تطورت منذ عصر ما قبل الإسلام في شعر بني هذيل وفي العصر الإسلامي بين شعراء الرسول "ص" وشعراء قريش وغيره/

٢ هناك مؤلفات عن التاريخ في شعر المتنبي او أبي تمام. أنظر مثلا: د. محمد علي جون علي، المتنبي مؤرخا، الطبعة الأولى، بغداد ٢٠٠٧. وكذلك أنظر كتاب إحسان عباس، التاريخ في شعر أبي تمام، بيروت ١٩٥٦. ومثله كتاب لشوقي ضيف وغيره.

والتطلعات القريبة والبعيدة وكذلك تاريخهم والعوامل الخفية وراء وقوع الأحداث الكبيرة وكذلك رؤاهم المتنوعة نحو مختلف جوانب الوجود ومدى الحساسية الفنية والحياتية التي تملأ القلوب والعقول والأنفس.

إن القصيدة مهما انطوت على جوانبها الذاتية العميقة لشاعرية الشاعر نفسه فهي وليد مشترك بين الشاعر وقدراته الفنية وحالته الشعورية من جهة والمجتمع وفكره السائد وثقافته التي ترسم مساره اليومي والعام وتحدد مصائره من جهة أخرى. إن قصائد خالدة مثل لامية العرب للشنفرى الأزدي وصولا إلى زيارة السيدة السومرية لحسب الشيخ جعفر مرورا بمعلقة أمرئ القيس وزهير وأراجيز عبد الله بن رواحة وهجائيات الحطيئة ونقائض جرير والفرزدق والأخطل وخمريات أبي نؤاس وتوبة ابي العتاهية ومحنة ابي العلاء ومرارات المتنبي ومرحبا أيها الأرق للجواهري ومثلها يا دجلة الخير ومشاغل سعدي يوسف وسيدة التفاحات الأربع ليوسف الصائغ وقبلهما أنشودة المطر للسياب وغربته على الخليج، كلها قصائد تعكس إلى جانب معاناة شعرائها وتجاربهم الشعورية العميقة والملتهبة تعكس إشارات بين الصريحة والمخفية للواقع الاجتماعي الذي ساهم في عملية إنجاب هذه الأعمال الخالدة. ولو أتيح لدارس البحث عن خفايا القصائد أعلاه لتوقف طويلا عند أصولها المجتمعية ناهيك عن عالمها الفني الرائع إضافة إلى الحالات الشعورية لمبدعيها وعالمهم الروحي والنفسي الذي قد يكون هو الشرارة التي ألهبت نيران التجربة.

٥-٢: التداخل بين الشعر والدين

١-أدبية النص القرآني.

لم يأت القرآن الكريم بلغة العرب وحسب، بل جاء بثقافتهم أيضا، لذلك كان قريبا من عقولهم ونفوسهم. وعندما نقول أنه جاء بثقافتهم فمن المفهوم أنه حافظ على السبل والأساليب التي كانت متبعة وتؤثر في نفوسهم وعقولهم. ومن ذلك أنه لم يكن بعيدا عن الطرق الأدبية التي توصل مضامينه العميقة والشاملة إلى عقول الناس وتؤثر فيها وفي افئدتهم. ولما كان الشعر أحد أهم عوالم الثقافة العربية السائدة عند العرب فكان من الطبيعي أن يحافظ القرآن الكريم على مستوىً ما من الأدبية وسبل التعبير التي الشعر لما لها من قدرة على إيصال الفكرة مع التأثير في الناس وهذه هي أهم رسالة للنصوص. فكانت هناك اللغة المحكمة الرصينة والمستهدفة للفكرة وجاءت كل مفردة في مكانها الأنسب فكانت الآيات محكمة ومنها جاءت نظرية الإعجاز التي أشرنا لها سابقا وعليه اعتمد الكتاب

الكبار في رفض فكرة وجود الترادف في القرآن الكريم وجاء التعبير في القرآن الكريم قائما على أرقى درجات البلاغة متصاعدة من التشبيه فالاستعارة بأنواعها فالتعبير بالصورة[١]. لكن القرآن الكريم أتحف الثقافة العربية بأحسن القصص ولاسيما ما يتعلق بالأنبياء السابقين واقوامهم والعبرات المستقاة منها ومن الأحداث التي يفصلها القرآن وأحيانا يلمح بها ويشير إليها عن بعد. لكننا في الحقيقة نقصد هنا ضالتنا الكبيرة وهي أبناء الفني للقصص في القرآن الكريم؛ الافتتاح ثم الدخول البطيء في موضوع القصة وهو ما يماثل التمهيد ليسترعي انتباه المتلقي ثم يدخل الحدث ليستولي تماما على لب المستمع والقارئ ثم يتصاعد الحدث وصولا إلى قمته ليبدأ الحل بتدخل إلهي حاسم. وبالرغم من وجود تفرعات هي عبارة عن قصص أو أحداث ثانوية لكن عنصر الحبكة متوفر بكل ثقله ومعانيه، أنظر كيف يتحقق كل ذلك في قصة يوسف على وجه الخصوص، تلك القصة التي لم يتوقف عن بنيانها الفني وشخصياتها التي نكاد نراها ونحن نتابع أحداثها وأحاديثها.

٢- التعبير بالصورة والمشهد.

إن التعبير بالصورة وبالمشهد الفني العالي، كصيغة من صيغ التعبير، يشغل مكانا متقدما في رسم أحوال أهل الجنة مثلا وأهل النار وأهوال يوم القيامة وهذا ما لم ينتبه إليه كثير ممن بحثوا في لغة القرآن ومستواه البلاغي.

ولقد خصصت دراسات رصينة غدت مراجع هامة في الدراسات النقدية عن النص القرآني الكريم لاسيما التعبير بالصورة فكان كتاب سيد قطب التصوير الفني في القرآن الكريم[١] وكذلك كتاب الصورة الأدبية في القرآن الكريم للدكتور صلاح الدين عبد التواب[٢] وغيرهما. وجاءت دراسات هامة عن لغة القرآن وعن جمالية المفردة القرآنية وأساليب التعبير فيه[٣]. أما التعبير بالمشهد فلقد توقفتُ في دراستي عن غسان كنفاني[٤] عند ظاهرة التعبير بهذه الوسيلة الفنية الراقية والتي شكلت لي مفتاحا للتوقف عند التعبير بالمشهد في القرآن الكريم. ومن أكثر الدراسات التي أوفت الموضوع بحثا كان كتاب الدكتورة

---

١ انظر مثلا: سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧ وبعدها طبعات أخرى عديدة. أنظر كذلك: صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٥. وغيرها.

١ سيد قطب، الصورة الفنية في القرآن الكريم، مصدر سابق.

٢ الدكتور صلاح الدين عبد التواب، مصدر سابق.

٣ د. أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، مصدر سابق.

٤ شاكر كتاب، النص الأرجواني في أدب غسان كنفاني، الطبعة الأولى- اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين، بغداد ٢٠٢٣.

ابتسام مرهون الصفار " التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد يوم القيامة"[١] الذي تدرس فيه الكاتبة انعكاس الثقافة العربية في لغة القرآن الكريم وفي رسم مشاهد يوم القيامة في الجنة وفي النار. والحديث هنا عن التعبير بالمشهد الذي هو تطوير واسع للصورة ويمتاز عنها بالاتساع وبالحركة وبشمولية الحالة. **موسيقية التراكيب.**

ومن الشواهد التي تميز أدبية النص القرآني نجد اهتمامه بموسيقية العبارات وانسيابية الآيات وحتى المفردات. والسجع ظاهرة فنية كانت سائرة في النصوص النثرية مثل الخطابة في المناسبات وفي الرسائل رغم ندرتها وكذلك في المقاطع الدينية التي كان يستخدمها سدنة بيوت العبادة أو الكهان. لكن القرآن جاء بالفواصل القرآنية التي سميت كذلك تمييزاً له عن غيره من النصوص. وحرصاً على الحفاظ على اللغة الأدبية المتصلة بعقول الناس وأفئدتهم وصلت موسيقية النص القرآني إلى أن تأتي بعض الآيات الكريمة موزونة وفقا لبعض بحور الشعر العربي[١].

٣- الترتيل والتجويد.

هناك اختلاف في تفسير كلمة الترتيل. فهناك من يرى أنها تعني قراءة القرآن الكريم مرتلا أي مغنىً غناءً خاصا. ومنها يأتي القول أن القارئ الفلاني سيرتل علينا ما تيسر له من آيات الذكر الحكيم. ومنهم من يرى أن ترتيل القرآن يجب أن يكون بتتابع الآيات كما تتبع عربات الرتل بعضها بعضا استنادا على قوله تعالى:" إنا أنزلنا عليك ترتيلا". والتفسير الأول أقرب إلى نفسي لأنه يستند إلى إحدى آيات القرآن الكريم: "ورتِّلِ القرآنَ ترتيلا" التي تعني قراءته بصوت حسن ومسموع. والترتيل لغةً الإظهار بشكل محكم وحسن الأداء والتنظيم. أي ينبغي أن يكون بيِّناً للمستمعين وأن يقرأ على روية وتمهل ومنهم من يرى أت الترتيل هو الإفصاح وإقامة حدود التلاوة". والحقيقة ليس هناك في القرآن الكريم ما يشير إلى ضرورة التغني بالنص القرآني لكن من المستحب أن يقرأ بصوت حسن دونما تشبه بالغناء. يقول صفاء خلوصي: إن القرآن ليس شعرا ولا نثرا، إنما هو نثر إيقاعي سماوي من أسمى ما يكون، ولولا هذا الإيقاع الخاص به، الذي لا يجاريه أي إيقاع شعري أو نثري أبدا، لما أمكن تجويده، والتجويد ضرب من الغناء الديني، وعلى ذلك يجب أن نتبين التفاعيل الرائعة التي

---

١ ابتسام مرهون الصفار، التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد يوم القيامة، بغداد ١٩٦٦

١ تابع تفاصيل هذا الأمر في: الدكتور ناصر لوحيشي، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، إربد – الأردن ٢٠١٢، ص١٧ وما بعدها.

يزدوج بعضها مع بعض، فتؤلف هذا التأثير القوي المتسق الذي لا نجد له مثيلا أو ضريبا في أدب الدنيا، فالإيقاع القرآني خاص به لا يجارى ولا يبارى، وهو في الآيات المكية أشد وأقوى منه في الآيات المدنية"[١]. وفي هذا الراي يتبع صفاء خلوصي قول طه حسين من القرآن ليس شعرا ولا نثرا إنما هو قرآن.

لكننا نتبع قراءات القرّاء المعاصرين لنا في وقتنا الحاضر ونجد أنها مغناة وبتجويد عال. خذ مثلا القارئ الشيخ عبد الباسط عبد الصمد او قرّاء العراق الذين يتبعون أنغام المقامات. وفي ظني أن قراء اليوم هم امتداد لقراء الأمس ومقلدون لهم وهم خريجو مدارس ودورات ومعاهد تلتزم التراث مرجعا لها رغم مرور الوقت الطويل وما يدعم استنتاجي هذا ما ينسب إلى النبي محمد "ص" من أحاديث في هذا الشأن من بينها: " زيِّنوا القرآن بأصواتكم" وكذلك: " ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن". والحقيقة لا أود الاتفاق مع من جاء بالتفسيرات التي ابتعدت عن مقاصد الحديثين الشريفين مثلما يقول الشافعي في شرحه لكلمة يتغنى هنا برفع الصوت وتحسينه ولا أدرى كيف يمكن تحسين الصوت أثناء رفعه بغير الغناء ولو على مهل، وكذلك يذهب ابن تيمية في تفسير قريب منه. وليدنا حجة أخرى: ليس هناك من ينكر أن الآذان كان ينادى به للصلاة بصوت عال مسموع وفي طيف من أطياف التغني. وقبل ذلك كانت القبائل قبل الاسلام عندما تحج بيت الله تردد مغنيةً أناشيد تعبر فيها عن إخلاصها لله تعالى ومفتخرةً بأصلها ونسبها. من مثل:

لبيك اللهم لبيك لبيك

أن الحمد لك والنعمة والملك

لا شريك لك لبيك

والشعر العربي كان يغنّى في كل العصور ألأدبية بأشكال متنوعة وبدرجات مختلفة. ففي عصر ما قبل الإسلام كان الشعر يلقى منشَدا إنشادا موقّعا بأنغام طبيعية تتناسب مع الوزن الذي صيغت به القصيدة وتذكر المصادر أن بعض القصائد كانت تنشد بمرافقة العزف وترديد القيان والقين وإن كان ذلك عند المغنين غالبا لكنهم كانوا يغنون الشعر الذي يبدعه الشعراء الذين هم أنفسهم كانوا ينشدون أشعارهم منشدين إياها بنبرة وإيقاع. وفي العصر الإسلامي وتحديدا في زمن النبي محمد "ص" ومن بعده الخلفاء الراشدين كان الشعر أيضا ينشد بصوت عال مسموع وواضح مع إيقاع يلائمه وصوت قوي لكن دون أدوات

١ د. صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، ط ٥، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧، ص ٣٩٠.

موسيقية ويقال أن الصحابة أنفسهم كانوا يرفعون أصواتهم بالشعر في الحرب أو السفر بصوت مسموع وعلى طريقة (الحداء) وفي سيرة ابن هشام نقف على معلومة هامة وهي ان كعب بن زهير صاحب قصيدة البردة كان قد أنشد قصيدته الاعتذارية " بانت سعاد" إنشادا أمام الرسول "ص". وكذلك فإن حسان بن ثابت كان ينشد الشعر بين يدي النبي "ص". وفي طبقات ابن سعد نقرأ أن الخنساء كانت تنشد شعرها حتى في العصر الإسلامي[١]. وفي العصر الأموي كان ابن سريج يلحن الشعر ويغنيه بمعنى أننا يمكن أن نحكم بأن تلحين الشعر بدأ في العصر الأموي وغناؤه وازدهر أكثر حين تحول إلى غناء ترافقه الموسيقي في العصر العباسي والأندلسي معا. ولم تكن ولادة الموشحات في الأدب الأندلسي إلا لتطور العلاقة بين الشعر والغناء والموسيقى.

وعندما نقول إن القرآن الكريم جاء بلغة وثقافة القوم فإن ورود بعض الآيات الكريمة موزونة على نمط بعض بحور الشعر العربي الظاهرة ولو بشكل محدود لا ينبغي أن يثير استغرابا لدينا إذ البناء الموسيقي للآيات وتكثيف بنائها وتراص مفرداتها يأتي بها متساوقة مع الذوق العام للمتلقي المستهدف من مجيء هذه الآيات وهو الإنسان العربي تحديدا في أول زمن الرسالة. ولقد قام أبو يعقوب السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" بجمع هذه الآيات وغيرها ومقابلتها بالأوزان التي تنسجم معها[٢].

نضيف إلى ما تقدم من عوامل الشبه الموسيقي بين القرآن الكريم والشعر العربي وجود الفواصل القرآنية وهي ما يقابل السجع في النثر والقافية في الشعر كما أشرنا سابقا. والفاصلة القرآنية الأخرى ظاهرة جمالية استوقفت كثيرا من الباحثين لفحص عناصرها الفنية والأدبية وعلاقة الشبه بينها وبين نهايات المقاطع النصية الأخرى في الشعر والنثر.

٤- أثر النص القرآني الكريم في الشعر.

يشير كتاب كثيرون ومن بينهم د. سامي العاني إلى تأثير القرآن الكريم في الشعر العربي منذ العصر الإسلامي لغويا من حيث دخول مفردات وتراكيب وعبارات جديدة فيه لم تكن ترد

---

١ د. يحيى الجبوري، الإسلام والشعر، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٤، ص٧٠.

٢ أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، طبعة ٢، بيروت، ١٩٨٧، ص ٥٩٨- ٥٩٩.

على ألسنة الشعراء من قبل فمفردات مثل الجنة والنار والقيامة وغيرها كثير أو تركيبات مثل رسول الله والله أكبر وغيرها[١].

لكن التأثير الواضح والكبير أيضا هو ظاهرة اقتباس الشعراء من القرآن الكريم للأفكار والعبارات والصور وأسماء السور والشخصيات حتى غدت عملية الاقتباس والتضمين من القرآن الكريم ظاهرة بارزة خصص الباحثون كتبا ودراسات غير قليلة لتفهمها والكشف عن معانيها الفكرية والجمالية والفنية[١].

٥- الشواهد الشعرية.

هذا وقد اعتمد الشعر سبيلا لتفسير الآيات القرآنية لدى الكثير من المفسرين والشارحين وسبق أن أشرنا إلى قول أبن عباس حول العودة إلى الشعر في حال استعصت آية ما على الفهم. والحقيقة يعدّ ابن عباس مؤسس منهج تفسير القرآن الكريم بالشعر وقد قام مجد الدين الفيروزآبادي بجمع ما قام ابن عباس بتفسيره معتمدا الشعر في كتابه غير المعروف على نطاق واسع وهو" تنوير المقباس من تنوير ابن عباس". لكن يبقى الإمام الطبري أكثر المفسرين استخداما للشعر في كتابه الكبير " جامع البيان في تأويل آي القرآن" لتفسير الآيات القرآنية التي كانت تحتاج إلى إضاءات أوسع وللتدليل على معنى مفردة قرآنية أو آية. كذلك فعل الزمخشري في كتابه: " الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" ومثلهما فعل آخرون كثيرون كأبي حيّان الأندلسي في" البحر المحيط في التفسير" والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن" وقد كتبت مؤلفات عديدة عن الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم تعرضت للتناول اللغوي للمفردة او للمعنى بين القرآن والشعر وتأثير ذلك على توضيح المشكل في فهم القرآن الكريم[٢].

---

١ أنظر كتابنا: شاكر كتاب، الشعر في حضرة النبي، إصدار الإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد ٢٠٢٤، ص ١٢٧ فصاعدا.

١ انظر مثلا: عبد الهادي الفكيكي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، دمشق ٢٠١١. فوزي الطائي، أثر القرآن الكريم في الشعر العراقي من ١٩٠١- ١٩٥٠ن بغداد ٢٠١٣، وفيه فصل كامل عن أثر القرآن الكريم في الشعر والنقد، في الصفحات ٥٩- ٨٩.

٢ أنظر مثلا: محمد أحمد الدالي، الشاهد الشعري في تفسير القرآن، دار القلم – دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٤وهناك طبعتان ٢٠٠٣ و٢٠١٠. وحاتم صالح الضامن الشاهد الشعري في تفسير القرطبي، دار العلوم – السعودية، ١٩٨٧، وكذلك عبد الله كنون، لغة القرآن في الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨ والأخيرة ٢٠٠٦..

٦- النظرية النقدية الإسلامية

٧-١. لقد وجهت الآيات الثلاث ما قبل الآية الأخيرة من سورة " الشعراء " في القرآن الكريم ضربة صادمة للشعر والشعراء في آن واحد. وكادت أن تقطع شريان الشعر نهائيا، وهو الكنز الأدبي واللغوي الأكبر الذي يعد أحد أهم معالم الثقافة العربية قبل الإسلام (وبعده وإلى يومنا هذا). ويعد أيضاً من مصادر المعرفة المهمة عن تاريخ العرب السياسي والثقافي والاجتماعي وعمَا تبقى من صُعُد. وقد حقق شوقي ضيف هذا النوع من المعرفة عن عرب ما قبل الإسلام حين شرح أحوالهم الاجتماعية وثقافاتهم وعاداتهم وتاريخهم من خلال أشعارهم. بل وسمي بـــ " ديوان العرب" لهذه الأسباب [١]. ويؤكد وعي النقاد العرب لهذه الحقيقة ما قاله ابن قتيبة عن الشعر فيما ذكرناه آنفاً. أقول: كادت هذه الآيات أن تقطع دابر الشعر والشعراء لولا الآية التي تلتهن والتي بها اختتم القرآن السورة مستثنياً فيها بعض الشعراء. وقصة هذه الآيات وردت في مصنفات (أسباب النزول) إذ أن رجلين على عهد رسول الله ص تهاجيا، أحدهما من الأنصار والآخر من قوم آخرين، وكان مع كل منهما غواةٌ من قومه وهم السفهاء فأنزل الله:" والشعراء يتبعهم الغاوون "[٢].

تقول الآيات من سورة الشعراء: - وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦). في حين أن آية الاستثناء عن هذا النقد اللاذع - والذي يقترب من حد التكفير- شملت شعراء محددين بعد أن جاء عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك فقالوا يا رسول الله لقد أنزل الله هذه الآية وهو يعلم أنّا شعراء هلكنا فأنزل الله الآية التي هي: إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧).

ومنذ ذلك الحين قال الشعر وكتبه ونقله مؤمنون دافعوا به عن الرسول وعن الإسلام وعقائده ومقدساته. بل تحول الشعر، في أيام الرسول سلاحاً بيد المسلمين يصارعون به شعراء الكفر والمشركين والأقوام الأخرى التي ناصبته ص ودعوته العداء.

٧-٢. وفضلاً عن النص القرآني وأحاديث النبي ص كانت أشعار الشعراء المسلمين تنتشر بسرعة ويتناقلها الرواة خاصة تلك التي تتعلق بنشر الدين وأفكاره ومبادئه. فمن الطبيعي إذن أن يتأثر الشعراء، لا سيما المقربون منهم من الرسول وأصحابه، بلغة القرآن ومفرداته

---

١ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص ٦٧ وما بعدها.

٢ جلال الدين أبو عبد الرحمن السيوطي، أسباب النزول، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٠، ص ١٩٤.

وتراكيبه وصوره وقصصه فصار الشعراء يبشرون بالقرآن أيضا وينقلون أفكاره وحكمه ومضامين آياته.

لكن ونحن في صدد العلاقة بين القرآن والشعر علينا ملاحظة أن القرآن الكريم قد حرص مراراً على دفع تهمة الشعر عن آياته وصفة الشاعر عن الرسول ﷺ. ولنستعرض أولاً الآيات المقصودة، ولنحاول تفهم أبعادها:

١- " بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر" سورة الأنبياء الآية ٥.

٢- وفي سورة يس "وما علمناه الشعر وما ينبغي له إنْ هو إلَّا ذكرٌ وقرآنٌ مبين" الآية ٦٩.

٣- وفي سورة الحاقة " وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون" الآية ٤١.

فالقرآن الكريم في هذه الآيات يُجبُّ عن نصوصه الكريمة صفة الشعر ويبعد عن الرسول ﷺ صفة الشاعر ليس حطّاً من قيمة الشعر بل لتأكيد أن القرآن ليس شعراً وأن الرسول ليس شاعراً. ولقد قال طه حسين أن القرآن ليس شعرا ولا نثرا إنما هو قرآن[١]. وأن يبعد الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن آياته صفة الشعر وعن رسوله "ص" صفة الشاعر لا يعني ذلك تحريماً للشعر ولا حتى تأسيساً لموقف سلبي منه، إنما هو إقرار حقيقة يجهلها المشركون الذين كانوا يهاجمون الرسول وكتاب الله كي يبعدوا عنهما قدرهما الكبير ويضعفون مكانتهما ومن ثمَّ تأثيرهما في المجتمع. ولعلهم ينطلقون من صورة الشاعر في المجتمع العربي قبل الإسلام إذ أن أغلب الشعراء كانوا يدَّعون ملازمة الجن لهم أو الشياطين تلهمهم الشعر. فإن اعتراف العرب " بهذه القوة موجودة ولكن اهتمامهم بالتحدث عن طبيعتها قليل. وقد قرنوها منذ القديم بالشيطان وتصوروها نوعا من الإلهام" حتى أن الفرزدق – وهو شاعر أموي – صرح بأنه كان صديقا لإبليس وابنه. ورد أبو النجم فحولة شعره إلى أن شيطانه ذكر في حين شيطان خصمه أنثى[٢]. وكانت وظيفة الشاعر آنذاك الدفاع عن قبيلته مهاجماً أعداءها بالنقد اللاذع وفي كثير من المرات بالتعرض لكراماتهم وشرفهم وأنسابهم.

---

١ طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط٩، القاهرة، ص ٢٥.

٢ إحسان عباس، فن الشعر، دار الشروق، عمان – الأردن، الطبعة الثانية ٢٠١١، ص ١٢١. وانظر في ذلك مناقشات نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص" مصدر سابق، ص ١٣٩-١٤٠. وكذلك شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص ١٩.

والهجاء في الجاهلية " كان لا يزال يقرن بما كانت تقرن به لعناتهم الدينية الأولى ويحاولون التخلص من أذاه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا"، واللسان " كان ينكأ بهجائه في الأعداء نكأ السيوف والرماح"[١]. وإذا تغزل الشعراء فالكثير منهم جاء شعره غير محتشم، وفقا للمعايير الإسلامية، ومخدشا للحياء " وتراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها. ولا يكادون يتركون شيئا فيها دون وصف له. إذ يتعرضون لجبينها وخدها وعنقها وصدرها وعينها وفمها وريقها ومعصمها وساقها وثديها وشعرها"[١]. على العكس من هذا كله. فالرسول يتلقى الرسالة السماوية علي يد جبريل ليبلغها للناس. وهذه العملية كلها تسمى بالوحي. والأغراض الشعرية العديدة التي امتلأ بها شعر ما قبل الإسلام يخلو منها القرآن تماماً. ولعل خير من نزه القرآن الكريم والرسول من صفة الشعر من علماء العرب القدامى هو السيوطي إذ يشرح شروط الشعر من جوانبه الفنية ومن حيث المحتوى وأخرى أخلاقية فلا يجد فيها ما يجمع الشعر بالقرآن الكريم ولا الشاعر بالرسول . والشاعر إذا هزل أضحك وإن جد كذب. فالشاعر إذن بين كذب وإضحاك، وعن هاتين الخصلتين قد نزه الله نبيه "ص" وعن كل أمر دني. وإذا كان الشاعر مادحاَ ضارعاً أو هاجياً ذا قذع فإن هذه الأوصاف لا تصلح لنبي. ولعل الجانب الفني في كلام السيوطي يرقى إلى النقد المقارن عالي المستوى. فهو يشير إلى أن أهل العروض مجمعون على أنه لا فرق بين صناعة العروض وصناعة الإيقاع، إلا أن صناعة الإيقاع تقسم الزمان بالنغم وصناعة العروض تقسم الزمان بالحروف المسموعة، ولما كان الشعر ذا ميزان يناسب الإيقاع والإيقاع بالحروف فهو ضربٌ من الملاهي لن يصلح ذلك للرسول (٢). وتشير الدكتورة ابتسام مرهون الصفار إلى تعليل يقترحه بعض الباحثين لقضية تنزيه الرسول عن الشعر في أن العرب " شأنهم في ذلك شأن الشعوب الأخرى في نظرتهم إلى الأدباء والفنانين كانوا يظنون بعقول الشعراء فيعتقدون الظنون أن بهم ما يشبه الجنون" وتستشهد بالآية الخامسة من سورة الأنبياء: " ويقولون أئنا لتاركوا ءألهتنا لشاعر مجنون". وتستطرد لتذكر أمر ارتباط الشاعر القديم بموضوع الشياطين الذين يوحون إليه

---

١ شوقي ضيف، العصر الجاهلي، مصدر سابق، ص ١٩، وص ٢٠٠.

١ شوقي ضيف، نفسه، ص ٢١٢. وانظر في ذلك أيضا معلقة إمريء القيس وشعر جاهلي كثير.

٢ جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد جاد المولى – محمد أبو الفضل وآخرون، ٤٧٠/٢، عن ابتسام مرهون الصفار، مصدر سابق، ص ١٨.

الشعر وبعض ما قد عرفوا به من مسلك خلقي يتسم بكثير من الإسراف واللهو والإقبال على الملذات المادية من خمر وميسر وغير ذلك[١].

٧-٣. غير أننا نلمس من بين الآيات الكريمة هذه ملامح تأسيسية لنظرية نقدية إسلامية تبدأ منها ومن موقف القرآن ككل من الشعر وموقف الرسول محمد "ص" كذلك. ففي هذه الآيات يضع القرآن الكريم شروطا ومعايير للشعر والشعراء؟ ففيها محاربة الأهواء والغرائز والانفعالات غير المنضبطة والأحلام التي قادتهم إلى وديان متناثرة والمقصود هنا الأغراض المتعددة والتي غالبا ما كانت تطفو على سطح الصور الشعرية لدى شعراء فترة ما قبل الإسلام وحتى معاصرو فترته الأولى. يقول الحسن البصري:" قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها، مرة في شتيمة فلان وفي مديحه مرة أخرى"[١]. ويقول قتادة: " الشاعر يمدح قوما ويذم قوما بباطل"، أنهم يقولون ما لا يفعلون، فهم يتبجحون بأقوال وأفعال لم تصدر عنهم فيتكثرون بما ليس لهم". ويضيف سامي العاني: " يجاريهم ويسلك مسلكهم، ويكون في ملتهم الغاوون الضالون عن سنن الحق، الحائرون فيما يأتون ويذرون، ولا يستمرون على وتيرة واحدة في الأفعال والأقوال، وانهم في لغو يخوضون " ألم تر أهم ف يكل واد يهيمون " وفي كل فن ينظمون وهم يعملون خيالهم في كل الموضوعات بدون تمييز"[٢].

عندما نتوقف عند الشطر الثاني من الآيات وأقصد هنا آيات الاستثناء يتضح لنا أن القرآن الكريم يضع شروطا للشعر كي يغدو أكثر ملائمة للروح الإسلامية والثقافة والوعي الذين جاء بهما الدين الجديد. الشعراء الذين يتقبلهم الإسلام ويتقبل أشعارهم هم هؤلاء " الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا".

ولعله من المفيد الإشارة هنا إلى أن تخطر فوراً على الذهن قضية أخرى ذات أهمية ليست قليلة. هل فعلا ضعف الشعر العربي بسبب الحكم الإسلامي وسطوة العقيدة؟ نباشر بالقول أن ما طرأ على الشعر هو أنه تغير. تغيرت أغراضه من داخلها كما تغيرت الرؤى الشعرية وتغيرت حتى الأشكال. فلقد رفض الإسلام الهجاء الجاهلي القائم على الشتيمة واللاذع من القول وحصره بتبيان

---

١ سامي مكي العاني، دراسات في الأدب الإسلامي، دار المعارف، بغداد ١٩٦٨، ص ١١، عن ابتسام الصفار، مصدر سابق، ص ١٩.

١ د. سامي العاني، مصدر سابق، ص ٦٢.

٢ د. سامي مكي العاني، المصدر ألأسبق، ص ٧٢.

معايب السلوك وخطا رؤى المشركين ووعيدهم بالنار وعسير الحساب يوم القيامة، أنظر في ذلك هجاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة للمشركين، تغير أيضا المديح الذي كان ينصب على الملوك والقادة وإضفاء ما ليس فيهم على شخوصهم إلى أن يمدح الشاعر الإسلامي محمداً ص والمجتمع الإسلامي الجديد والقيم الجديدة. راح الشعراء المسلمون يبشرون بعقيدتهم الجديدة ويدعون إلى الإسلام ونصرة دينهم الجديد وهذا النوع من الأغراض لم يكن موجودا سابقا.

وإذا كانت الرؤى تقوم على أساس الرحيل والحنين والبكاء على الأطلال والاغتراب ومكابدة الوحدة أصبحت اليوم تتعلق بالإيمان بالله وبرسالة محمد وبالعقيدة الإسلامية وما يرتبط بها. وإذا كانت القصيدة الواحدة قبل الإسلام تتنقل من غرض إلى آخر مما انعكس على تنوع بنائها وتعدد مقاطعها وصورها المختلفة فهي في العصر الإسلامي تمتاز بالوحدة الموضوعية الأمر الذي أدى إلى اتسامها بالحبكة كما هو الحال في قصائد شعراء الرسول حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك.

الخاتمة والنتائج:

شغلتني موضوعة العلاقة المتينة إلى، حد التطابق، بين اللغة العربية والدين الإسلامي والشعر العربي والتي لم تبحث من قبل حسب علمي ببحوث مستقلة. نعم بحثت الصلة بين كل إثنين على حدة مثل: اللغة والقرآن، اللغة والشر، القرآن والشعر لكن بالشكل الذي جاء في بحثنا هذا لم يحدث. لذلك لاقيت كثيرا من الصعوبات في العثور على المادة التي من شأنها الإسهام في بناء هذه الدراسة. ومنذ البدايات تبنى البحث إشكالية توحيد العرب وخصوصا لغتهم العربية وهل تحققت على يد الشعر أم على أساس جمع القرآن الكريم الذي جاء بلغة شملت مفردات وصياغات كانت متداولة بين القبائل العربية. ثم رأينا كيف أن اللغة بذاتها أصبحت شبه مقدسة وتعلمها أصبح وابا دينيا شرعيا بسبب قداسة القرآن الكريم الذي راحت تأثيراته في المشهد الثقافي العربي يشتد مع اشتداد ساعد الإسلام كدين وسلطته كدولة. وتأسست في ضوء تعاليم القرآن الكريم بدايات نظرية إسلامية في النقد حيث وضعت سورة الشعراء في نهاياتها معايير للشعر الرديء تقابله معايير للشعر الحسن. وتواصل التأثير المتبادل بين النص القرآني والشعر حتى دخلت القصص الدينية في الشعر في إطار ما يسمى بالاقتباس وتطورت الأمور إلى الحد الذي صار الشعر واحدا من أدوات تفسير ما استشكل من آيات القرآن الكريم. حتى قامت تفاسير كبيرة وأساسية في جزء كبير منها على الاستشهاد بالشعر الذي غدا هو الآخر ظاهرة مميزة مما حدا بكتّاب عديدين إلى دراسة ظاهرة الاستشهاد بالشعر في شرح كلمات القرآن الكريم.

من النتائج التي يمكن تسجيلها هنا:

١- ان القرآن الكريم أسهم بالدور الأكبر في توحيد اللغة العربية بعد جمعه وتوحيد ما تفرق منه لدى كتاب الوحي او الصحابة من حفظة القرآن.

٢- ويبدو أن توحيد القرآن للغة العربية قد تسبب في أن تكون معيارا لقياس سلامة كافة أنواع الأداء اللغوي اللاحق وحتى يومنا هذا، فعلى ضوئها تقاس صحة وصواب لغة الأعمال الأدبية والفكرية والتفاسير وبقية النصوص الدينية وغيرها.

٣- أن لغة القرآن الموحدة تسبت في نشوء علوم عربية عديدة ومتنوعة قامت في الفترات اللاحقة مثل علوم التفاسير وعلوم النحو وعلوم البلاغة وتأسست نظرية إسلامية في النقد الأدبي وفي فقه اللغة وعلوم الصرف كذلك.

٤- من الناحية السياسية فإن وحدة لغة القرآن قادت إلى وحدة العرب ثقافيا وبالتالي قوميا وسياسيا وحافظت على وحدتهم إلى يومنا هذا. ويبدو أن لولا هذا الأساس التوحيدي الصلب لتشتتت القبائل العربية وغدت في لاحق الأزمان أمما أو شعوبا مختلفة عن بعضها البعض كما هو حال الشعوب السامية التي كانت موحدة لكن تشتتها اللغوي ومن ثم الثقافي قاد إلى افتراقها ومع الزمن قامت شعوب مستقلة عن بعضها ولها كياناتها الثقافية والسياسية المنفصلة عن بعضها وإلى يومنا هذا. (لعلنا هنا نتمكن من تسجيل ملاحظتين: أولا أن العودة في يومنا هذا إلى اللهجات المحلية واللهجات داخل المحلية كلها تهدد بتقسيمات ثقافية قد تقود إلى قيام أشكال وممارسات سياسية تفت من عضد وحدة العرب حتى داخل اقطارها التي هي أصلا دلالة التشتت والانقسام وثانيا تذكرنا هذه الحقيقة بالترابط الوثيق بين انبثاق الدول الأوربية عشية عصر النهضة واستقلال اللغات المحلية نتيجة التحالف المتين بين اللغة المحلية لكل شعب في حدود أراضه وبين الدولة التي استندت قبل كل شيء على التميز الثقافي لشعبها).

٥- نشأ تحالف يبدو أنه دائم بين اللغة العربية من جهة والنص الديني المقدس لدى المسلمين حتى ممن هم من غير العرب، وهو القرآن من جهة أخرى.

٦- تشكل ترابط وثيق بين النص القرآني والشعر العربي فأخذ كل منهما من الآخر. أخذ القرآن الكريم من الشعر لإنه من ثقافة القوم اليومية والمؤثرة في سلوكهم واعتقادهم وكذلك تناول الشعر العربي مواضيع القرآن وقصصه وشخصياتها وأحكام العقيدة منه حتى أن بض

الشعراء أعاد صياغة بعض قصص الأنبياء شعرا. ودخل الشعر في التفسير إذ استعان المفسرون به لتوضيح وإفهام ما قد بحاجة إلى توضيح أكثر.

٧- انعكست مفردات لغة القرآن الكريم ومفاهيمه وتراكيبه وصوره وبلاغته على الشعر الذي اغتنى بها واتسعت بسببها قدراته التعبيرية وأساليبه.

٨- وبسبب تأثيرات الدين الإسلامي وثقافته وتعليماته تغيرت مضامين الأغراض الشعرية فصار المديح معقولا متزنا يتعلق فقط بمدح الرسول "ص" ليس كزعيم قبيلة إنما كنبي صاحب رسالة وصار المديح مركزا في غالبيته للرسالة والدين وأفكاره. وكذلك تغيرت مضامين الهاء الذي أنتهى من أن يكون قائما على الشتيمة واللعن والطعن بالأحساب والأنساب وغدا مركزا على سلوكيات الخصوم وأفكارهم وعاداتهم وعباداتهم غير المنطقية.

Conclusion

This study has sought to investigate the profound—and at times nearly congruent—interrelationship among the Arabic language, Islam, and Arabic poetry. To the best of the researcher's knowledge, this triadic relationship has not previously been examined within a unified, independent scholarly framework. Although earlier studies addressed the connections between each pair individually—such as the relationship between language and the Qur'an, between language and poetry, or between the Qur'an and poetry—none approached the subject with the comprehensive integration attempted here. This lacuna accounts for the considerable difficulty encountered in locating source materials suitable for supporting the present investigation.

The study began with a central question concerning the unification of the Arabs, and more specifically, of their language: Was this unification achieved through poetry, as the earlier and more pervasive cultural force, or through the codification of the Qur'an, whose language encompassed the vocabulary and stylistic forms common among various Arab tribes? The findings indicate that the Arabic language acquired a quasi-sacred status due to the sanctity attributed to the Qur'an, making mastery of Arabic not merely a cultural matter but a religious obligation. The growing influence of the Qur'an on the Arab cultural scene corresponded with the rise of Islam as both a spiritual and political authority.

Moreover, early foundations of an Islamic critical theory began to emerge from Qur'anic teachings. The concluding verses of Sūrat al-Shu□arā□ articulated

explicit criteria for distinguishing between reprehensible and commendable poetry. The reciprocal influence between the Qur'anic text and Arabic poetry deepened over time, extending to the incorporation of religious narratives into poetry through iqtibās (intertextual borrowing). Poetry eventually became an interpretive tool for elucidating obscure Qur'anic passages, and major exegetical works came to rely heavily on poetic citations—an intellectual phenomenon that spurred multiple studies on the role of poetry in explicating the Qur'an's lexicon.

Findings

Based on the preceding analysis, the study arrives at the following principal findings:

١. The Qur'an's Central Role in Linguistic Unification.

The Qur'an played the decisive role in unifying the Arabic language after its compilation, which consolidated the dispersed fragments preserved by the scribes of revelation and the Companions who had memorized the text.

٢. A Lasting Alliance Between Arabic and the Sacred Text.

A seemingly enduring alliance emerged between the Arabic language and the Muslims' sacred text, the Qur'an—an alliance that extends even to non-Arab Muslims, for whom Arabic serves primarily as a religious language.

٣. Reciprocal Influence Between the Qur'an and Arabic Poetry.

A close symbiotic relationship developed between the Qur'anic text and Arabic poetry. The Qur'an drew upon familiar poetic diction that reflected the Arabs' cultural practices, beliefs, and daily experiences.

Arabic poetry, in turn, incorporated Qur'anic themes, narratives, and theological concepts; some poets even re-composed prophetic stories in verse. Poetry became an exegetical tool used by commentators to clarify meanings within the Qur'anic text.

4. Qur'anic Enrichment of Poetic Language. The vocabulary, rhetorical structures, imagery, and conceptual frameworks of the Qur'an significantly enriched Arabic poetry, broadening its expressive range and stylistic sophistication.

٥. Transformation of Poetic Themes Under Islamic Influence

Islamic teachings reshaped the thematic orientation of Arabic poetic genres. Praise poetry became more balanced and focused primarily on praising the Prophet—not as a tribal leader but as a divine messenger—thus emphasizing the message and the religion itself.

Satirical poetry (hijā□) shifted away from insults and attacks on lineage, and began to concentrate instead on critiquing opponents' behaviors, beliefs, customs, and irrational practices.

المصادر والمراجع:

١- ابتسام مرهون الصفار، التعابير القرآنية والبيئة العربية في مشاهد يوم القيامة، بغداد ١٩٦٦

٢- ابن رشيق العمدة، الطبعة الثاني، القاهرة ١٩٤٣، المجلد الأول.

٣- إبراهيم خليل، مدخل لدارسة الشعر العربي الحديث، الطبعة الخامسة، عمان ٢٠١٢.

٤- ابن المعتز، كتاب البديع، تحقيق كراتشوك، سلسلة جيب التنكارية، لندن ١٩٣٥.

٥- ابن رشيق، العمدة، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٤٣، المجلد الأول.

٦- إبن قتيبة، عيون الأخبار، القاهرة ١٩٦٥، المجلد الثاني.

٧- ابن قتيبة، كتاب الشعر والشعراء، القاهرة .١٩٦٦.

٨- أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، وردت في ذيل كتاب "الاتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي، القاهرة ١٩٥١ .

٩- أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، طبعة ٢، بيروت، ١٩٨٧.

١٠- إحسان عباس، التاريخ في شعر أبي تمام، بيروت ١٩٥٦.

١١- إحسان عباس، فن الشعر، دار الشروق، عمان – الأردن، الطبعة الثانية ٢٠١١، ص ١٢١.

١٢- أحمد ياسوف، جمالية المفردة القرآنية، دار المكتبي، الطبعة الأولى، دمشق ١٩٩٩،

١٣- جلال الدين أبو عبد الرحمن السيوطي، أسباب النزول، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٠.

١٤- حاتم صالح الضامن الشاهد الشعري في تفسير القرطبي، دار العلوم – السعودية، ١٩٨٧.

١٥- حنين بن اسحق، آداب الفلاسفة، اختصره محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري، حققه وقدم له وعلق عليه: د. محمد علي جون علي، المتنبي مؤرخا، الطبعة الأولى، بغداد ٢٠٠٧.

١٦- سامي مكي العاني، دراسات في الادب الإسلامي، دار المعارف، بغداد ١٩٦٨، ص ٢٥٩.
١٧- سامي مكي العاني، دراسات في الأدب الإسلامي، دار المعارف، بغداد ١٩٦٨.
١٨- سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٤٧.
١٩- شاكر كتاب، الشعر في حضرة النبي، إصدار الإتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، بغداد ٢٠٢٤.
٢٠- شاكر كتاب، النص الأرجواني في أدب غسان كنفاني، الاتحاد العام للأدباء والكتاب العراقيين، بغداد، ٢٠٢٣.
٢١- شوقي ضيف، الأدب الجاهلي، وأنظر جواد علي تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبوعات المجمع العلمي العراقي.
٢٢- شوقي ضيف، تاريخ ألأدب العربي، العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمص، الطبعة الثانية، ١٩٧٥.
٢٣- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها – تحقيق أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩م.
٢٤- صفاء خلوصي، فن التقطيع الشعري والقافية، ط ٥، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٧.
٢٥- صلاح الدين عبد التواب، الصورة الأدبية في القرآن الكريم، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٥.
٢٦- طه حسين، من حديث الشعر والنثر، ط٩، القاهرة.
٢٧- عبد الحسن حسن خلف، القيم المالية في الشعر الجاهلي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بغداد، الطبعة الأولى ٢٠١٧
٢٨- عبد الرحمن بدوي، منشورات معهد المخطوطات العربية، الطبعة الأولى ، الكويت ١٩٨٥
٢٩- عبد الله كنون، لغة القرآن في الشعر الجاهلي، دار الكتاب اللبناني – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٦٨ والأخيرة ٢٠٠٦.
٣٠- عبد الهادي الفكيكي، الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، دمشق ٢٠١١.
٣١- علي كمال الدين محمد الفهادي، الأثر الحضاري في الشعر الجاهلي، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد ٢٠١٤.

٣٢- عمر فروخ، الأدب القديم –من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية، دار العلم للملايين، ب. ت.

٣٣- الفروق في اللغة، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ١٩٩٢.

٣٤- فوزي الطائي، أثر القرآن الكريم في الاشعر العرافي (من ١٩٠١–١٩٥٠)، بغداد ٢٠١٣.

٣٥- فوزي الطائي، أثر القرآن الكريم في الشعر العراقي من ١٩٠١– ١٩٥٠، بغداد ٢٠١٣.

٣٦- فينسنيتي كتنتارينو – علم الشعر في العصر الذهبي، ترجمة محمد مهدي شريف، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ٢٠٠٤.

٣٧- مجموع الفتاوى، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم، مجلد ٧، دار الوفاء.

٣٨- محمد أحمد الدالي، الشاهد الشعري في تفسير القرآن، دار القلم –دمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٤.

٣٩- المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم، دمشق، ط٢، ٢٠٠٩م.

٤٠- ناصر الدين الأسد، مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، دار المعارف القاهرة، الطبعة الخامسة.

٤١- ناصر الدين الأسد، نشأة الشعر الجاهلي (دراسة في المنهج)، الطبعة الأولى – الأردن ١٩٩٩.

٤٢- ناصر لوحيشي الدكتور، أوزان الشعر العربي بين المعيار النظري والواقع الشعري، إربد – الأردن ٢٠١٢.

٤٣- ناظم رشيد، الأدب العربي في العصر العباسي، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى ٢٠١٤.

٤٤- ياقوت الحموي: معجم الأدباء، القاهرة ١٩٣٦، المجلد الأول.

٤٥- يحيى الجبوري، الإسلام والشعر، مكتبة النهضة، بغداد ١٩٦٤.